وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

حول أزمة الخلق المسلم المعاصر

عبد الحليم محمد أحمد أبو شقة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحاسة الخلقية امر فطري جبل عليه الانسان منذ خلق «ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها» فهي تعني ادراك للخير وللشر وانفعال أيضا بالخير، والشر ثم نزوع لفعل الخير والشر. وهي نبتة ضعيفة بحاجة للرعاية لتنمو وتسمو، ولذا بعث الله النبيين يركزون في النفوس مكارم الأخلاق ويثبتون في الأرض معالم الخير. وهكذا ما ختم الرسالات السماوية حتى كانت شجرة الأخلاق باسقة. وصدق رسول الله «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». وقد لقيت تلك الحاسة الرعاية الإلهية بطريقين يتمم أحدهما الآخر طريق التعليم والتوضيح مع الحضّ والتشجيع وطريق الحساب والجزاء وهكذا كانت الأخلاق عندنا مع أساسها الفطري بإلزام وجزاء كأكمل ما يكون الإلزام والجزاء، إلزام ذاتي وخارجي وجزاء معنوي ومادي.

والعقيدة تنمي الأخلاق بالحب قبل الخوف، بحب لله والتقرب اليه بما يحب والله يحب السمو. اذن فليحب الإنسان الكامل وفعل المكرمات. أي أن العقيدة تنمي النزعة الى السمو وهي نزعة لها أصل فطري. وبعد هذا الحشد من القوى الذاتية الداخلية التي نمي الاخلاق يأتي جانب الجزاء من ثواب وعقاب(1).

ثم إن العبادة تنمي العقيدة وتمي الأخلاق معا. إنها تفتح الآفاق الرحيبة أمام النفس، إنها تذكر الانسان بمعالي الأمور وتحض عليها. إنها تحبب اليه السمو وتكره اليه الهبوط والإخلاد الى الأرض. إنها تضع الإنسان في محراب الإيمان فينهل من النبع الخالد. إنها المصنع الدائم للإنسان حيث يشحن العقل والقلب بالنور. إنها مدرسة العبودية الخالصة لله يتخرج منها عباد لله لا يعرفون الخضوع لغير الله فيعمرون الدنيا بالحق والخير.

أخلاق الفكر:

وهذه في مرتبة عالية من النظام الخلقي حيث يقوم الفكر بدور كبير في حياة الإنسان، فإذا استقام الفكر ساعد ذلك على استقامة حياة الإنسان. وإذا كانت قوة الفكر «أي الذكاء» آمرا فطريا فإن تحرر الفكر وحب الحقيقة أمر فطري ومكتسب. . وتحري الحق عبارة عن مزيج من التحرر الفكري «... قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون» ومن حب الحقيقة «.... إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئا».

ومن التحرر الفكري ومن حب الحقيقة معا يتكون للفكر خلقه الأول والأساسي. فالتحرر يكفل للفكر أن يعمل بكامل قواه التي أودعها الله فيه دون أي ضغوط. وحب الحقيقة يدفع الفكر للسعي الحثيث كي يدرك الأمور كل الأمور على حقيقتها. أمور الغيب وأمور الهدى وأمور الواقع لا يقعده خمول أو رضا مهين عن السعي الحثيث والبحث المتصل. وصدق القائل: إن الفكر في جانب من جوانبه خلق أي أن قوى الفكر عندما تكون أمينة لوظيفتها وهذا شرطها الأساسي تغدو خلقا، وان الخلق هو في جانب من جوانبه فكر إذ يقوم على أساس من الادراك الصحيح للقيم الدينية، وهذا الادراك الصحيح من عمل الفكر.

والتوحيد وهو أول وأسمى درجات العقيدة لا سبيل أن يدركه غير العقل المتحرر اليقظ المتأمل.

وتجري الحق كخلق أول للفكر هو الأساس الذي تقوم عليه أخلاق فكرية أخرى مثل:

حسن الحوار: «.... وجادلهم بالتي هي أحسن...»

التسامح الفكري: «ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم»

This file was downloaded from QuranicThought.com

التسامح الديني: «لا إكراه في الدين.»

الأخلاق المركبة:

قد نعجب أحيانا من صدور نوعين من السلوك من شخصين نراهما متماثلين في خلق من الأخلاق. ولكن هذا العجب يزول إذا أدركنا أن بعض الأخلاق أو بعض أنماط السلوك انما يتشكل من خلقين أو أكثر. ولكي يصدر سلوك واحد من شخصين يستلزم تماثلهما في جميع الأخلاق المكونة لهذا السلوك، ولا يكفي التماثل في خلق واحد.

ومن أمثلة الأخلاق المركبة:

التقوى + إيجابية = ثورة علي المنكر

التقوى + سلبية = صمت عن المنكر

الورع + تحرر فكري = اجتهاد محكم

الورع + تقديس للسلف = تقليد وجمود

الاخلاص لله + تسامح = تعاون

الاخلاص لله + تعصب = تعاون

العفة + إيجابية = نشاط محتشم

المحبة + يقظة = تعاون

المحبة + بلادة = مجرد عاطفة أو دعاء

وحدة البناء الخلقي:

في أية مؤسسة أو في أي مجال ينبغي أن تتكامل وتتساند مجموعة من الأخلاق، حتى تنهض المؤسسة كلها (أو المجال كله) في وحدة متسقة، والا صلحت جوانب وفسدت جوانب أخرى، وربما اختلت جميع الجوانب.

فمثلا في مؤسسة كالجامعة:

* حب العلم وتقديره... خلق
* والجد في التحصيل.. خلق
* ونيل الهدف من التعليم.. خلق
* واختيار التخصص حسب القدرة .. خلق
* واختيار التخصص حسب تلبية لحاجة المجتمع.. خلق
* والاهتمام برسالة الجامعة العلمية والاجتماعية.. خلق
* والاهتمام برسالة الجامعة الوطنية.. خلق
* والأمانة في الأبحاث والامتحانات.. خلق
* والحوار المهذب مع المخالفين.. خلق
* وتدعيم الروح الجامعية بصفة عامة.. خلق
* والاحتشام في الزي.. خلق
* والاختلاط الجاد الهادف.. خلق

فلم يرفع الاسلاميون عادة لواء خلق واحد ويصرخون به بالليل والنهار ويدعون بقية الأخلاق دون تقدير او دون ممارسة أو دون دعوة لها أو دون حرب في سبيل تدعيمها ان كان لابد من حرب؟

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST TO QURANIC THOUGHT

ان حرصنا على وحدة البناء الخلقي يعني الوعي الكامل للمجال الذي نعمل فيه أو للمشكلة التي نعالجها. كما يعني صحة الاتجاه نحو الاصلاح الجذري لا الشكلي أو الترقيعي.

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«انما بعثت لأتمم مكارم الخلاق»

(حديث صحيح ورد تحت رقم 45 في سلسلة الأحاديث الصحيحة جـ1 للشيخ ناصر الدين الألباني)

الاتجاهات الفكرية واثرها في الأخلاق(2):

أولا: اثر العقلية العلمية:

هناك عدة مظاهر للسلوك (أو الخلق) البدائي. ونقصد هنا سلوك من لا يملك عقلية علمية ولو حمل أعلى الشهادات. ومن هذه المظاهر:

(أ) الحذر المفرط.

(ب) التردد بين الثقة المفرطة بالنفس وبين الشعور بالعجز المقعد.

(جـ) رفض الشعور بالعجز رغم صدمة الخيبة وإلقاء المسئولية على الغير.

(د) التردد بين الثقة المفرطة بالغير وبين سرعة سحب الثقة به بل والحقد عليه أيضا.

فإذا تأملنا وجدنا كل هذه الصور السلبية ناتجة من عدم (أو ضعف) الوعي بقوانين المادة وقوانين الاجتماع، والجهل بأن هذه القوانين وتلك تحكم المادة والانسان على السواء.

أما السلوك المنهجي السوي ونقصد هنا سلوك من يملك عقلية علمية ولو كان بدويا أو فلاحا يعيش في أعماق الريف، فيتسم بمظاهر تباين تلك تمام المباينة ذلك أن الفرد في هذه الحالة يدرك أن قضايا المجتمع تخضع لقوانين كما تخضع المادة. فمثلا في قضية الإصلاح وتغيير الواقع الفاسد يعلم أن هناك قانونا أو مجموعة قوانين تحكم تغيير الاوقع الى ما هو أفضل. والآية الكريمة «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» تشير الى قانون أساسي في هذه القضية ومن هنا نجد أن العقلية العلمية توفر لصاحبها مميزات خلقية طيبة مثل الثقة المعتدلة بالنفس وبالغير حيث يعرف حقيقة قدراته وقدرات الغير في إطار تلك القوانين الاجتماعية، ومثل الصدق مع النفس ومع الغير حيث الفرد هنا لا يفاجأ بالعجز (كما في حال السلوك البدائي) إنما هو يدر: ضعفه ويسعى بجد لاستكمال ما ينقصه دونما حاجة الى القاء المسئولية على الغير. ثم إنه بمنأى عن الحذر المفرط فإدراكه أن لله في خلقه سننا (قوانين) تجعله يتعامل مع معلوم أو مع قابل لأن يكون معلوما. فلا داعي اذن للحذر المفرط، إنما إحسان التقدير في حال الأمر المعلوم ومزيد من النظر والبحث في حال الأمر المجهول.

ثانيا: أثر الغيب الخرافي:

والغيب الخرافي هو كل تصور للغيب منحرف عن الغيب الالهي العلمي، الالهي ما كان مصدره الله جل وعلا، والعلمي ما كان قطعي الورود قطعي الدلالة.

وهذه بعض الأمثلة لأثر الغيب الخرافي:

(أ) إن تصور القدرة الإلهية والإرادة الإلهية تصورا منحرفا يشل قدرة الانسان على تغيير نفسه رغم صريح قوله تعالى: «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم». ان نزع سلطان التغيير من يد الانسان وتصور أن هذا السلطان لله وحده، افتئات على الله حيث هو سبحانه الذي منح هذا السلطان للإنسان. ولكن الغيبيين الخرافيين يحسبون أن عملهم ذل: من كمال الايمان بالله وقدرة الله. والحقيقة أنهم يسيئون الظن بالله ولا يحسنون. وهل ننتظر من أصحاب هذا التصور الخرافي الا أن يصابوا بالعجز والكسل والجبن والتواكل. إن

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

هذه الصفات من خصائص المؤمنين الخرافيين أما المؤمنون العلميون حيث يدركون العلاقة بين قدرة الله وقدرة الانسان ... فهم ذوو مضاء وعزم وإقدام.

(ب) إن تصور اليوم الآخر (أي معنى الحساب) في حالة اكتمال رسوخه وعلى الوجه الشرعي الصحيح يؤدي الى الشجاعة والاستقامة والتعمير الجاد للحياة. وإذا رسخ على وجه غير صحيح فيمكن أن يؤدي الى اعتزال الدنيا والتفرغ للعبادة.

(ج) فكرة «الرزق واحد» ومقدر منذ الأزل في حال رسوخها على وجه صحيح تؤدي إلى الإجمال في الطلب وعدم الإسفاف هذا من ناحية كما تؤدي الى البذل بسخاء في وجوه الخير. وإذا رسخت على وجه غير صحيح تؤدي الى الكسل والتواكل.

خطورة الانحراف الخلقي الفكري:

إذا قارنا بين الانحراف الخلقي الفكري (أي الانحراف عن الهوى ولو مع حسن النية) وبين الوقوع في معصية عابرة (أي الضعف عن تطبيق الهدى) نجد أن نهج الرسول صلى الله عليه وسلم التشديد في الأمر الأول والترفق في الأمر الثاني.

ومن أمثلة التشديد في الأمر الأول:

(أ) قوله صلى الله عليه وسلم «أفتان أنت يا معاذ»!! حين أطال على الناس في صلاة العشاء، وقوله صلى الله عليه وسلم «يا ايها الناس ان منكم منفرين فأيكم أمّ بالناس فليوجز».... قال الراوي فما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم قط أشد غضبا في موعظة منه يومئذ (رواها الشيخان) وهذا يعني ضرورة الرفق بالناس.

(ب) قوله صلى الله عليه وسلم «من ترك سنتي فليس مني» (رواه الشيخان) يوم جابه الثلاثة الذين غالوا في العبادة. وهذا يعني ضرورة الاعتدال وممارسة الحياة الطيبة.

(ج) وقوله صلى الله عليه وسلم: «يا أسامة أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله» قلت كان متعوذا فما زال يكررها حتى تمنيت اني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم. (رواه الشيخان) وزاد مسلم قوله صلى الله عليه وسلم «أفلا شققت عن قلبه!!» ... وهذا يعني ضرورة التحري والتبين خاصة في الدماء، واجراء أحكام الناس على الظاهر.

(د) قوله صلى الله عليه وسلم: «لو دخلوها ما خرجوا منها أبدا» رواه الشيخان، انظر قصة الأمير الذي أمر صاحبيه أن يرميا أنفسهما في النار، وهذا يعني ضرورة الوعي واليقظة وأن الطاعة في المعروف.

ومن أمثلة الرفق في الأمر الثاني:

(أ) قوله صلى الله عليه وسلم «أليس قد صليت معنا» انظر قصة الرجل الذي قارف معصية دون الزنا وجاء مثقلا بوطأة الشعور بالذنب (رواه الشيخان)

(ب) قوله صلى الله عليه وسلم «رأيت شابا وشابة فخشيت الشيطان عليهما» أنظر قصة ابعاد نظر الفضل بن العباس وكان ينظر الى امرأة جميلة في موسم الحج. (القصة رواها الشيخان وجملة رأيت شابا وشابة.. من رواية حسنة صحيحة عند الترمذي حسب تحقيق الشيخ ناصر الدين الألباني في كتاب حجاب المرأة المسلمة).

(ج) وأخيرا قوله صلي الله عليه وسلم «وإن زنى وإن سرق... وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي ذر» انظر الحديث «ما من عبد قال لا اله الا الله ثم مات على ذلك الا دخل الجنة» رواه الشيخان.

إ، الانحراف الخلقي الفكري أمر خطير لأنه قد يثمر نهجا عاما يطبع حياة الفرد أو حياة الجماعة. ولأن عادة لا يلفت الانتباه حيث يتلبس بمسحة دينية نتيجة النية الحسنة. بينما انحرف السلوك الشخصي أقل خطرا لأن كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون. ولأن الخطايا المعروفة تعلن عن نفسها فينكرها الفرد ويتوب منها، وان لم ينكرها هو أنكرها الناس.

بين أخلاق النهوض وأخلاق الجمود:

قد يتساءل البعض كيف قامت الحضارة الحديثة وتفوقت وسادت، مع وجود الانحرافات الخلقية مثل تلك المتصلة بالجنس وتناول الخمر والقمار.. لكن إذا تأملنا الأخلاق وجدناها عبارة عن مجموعة متكاملة من القيم تغطي جوانب الحياة كلها فكرية سلوكية شخصية

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

اجتماعية. والذي يحدث عادة في الأمم أن تبرز بعض القيم وتسود وتضعف قيم أخرى. والأمة تنهض وتتقدم بغلبة تأثير مجموعة معينة من القيم مثل الثقة بالنفس والطموح والجد والاتقان واليقظة والنظام والبسالة والاستهانة بالموت فإذا برزت هذه القيم وسادت امتد دورها إلى التخفيف من ظهور أثر بعض الانحرافات الخلقية كالزنا والخمر والقمار. ولكن مع مضي الزمن ومع تدخل بعض العوامل الخارجية كظروف حرب أو ترف أو فقر شديد أو فراغ روحي، قد يقع عند ذلك اسراف في (الخمر والميسر والزنا) مما يحطم من أخلاق النهوض ويهدد تماسك المجتمع ويضعف من قوته.

ان أخلاق القوة كالعزم والشجاعة والمغامرة والطموح والنظام والصبر والغيرية يقابلها أخلاق الضعف كالسلبية والجبن والخوف والتواكل والرضى بالدون والأنانية، وإن أخلاق الحق والخير مثل الاخلاص لله والتعفف عن المحرمات من زنا وخمر وميسر... والتوبة والتواضع والحياء والعدل مع الصديق والعدو يقابلها أخلاق الباطل والشر كالتبذل وشرب الخمر ولعب الميسر والزنا والتهالك على الدنيا والظلم لغير الصديق.

وفي مجال نهوض الأمم وتقدمها المادي أو ضعفها وانحلالها لا يضير مع أخلاق القوة وجود بعض أخلاق الباطل والشر كما أنه في مجال انحلال الأمة وسقوطها لا يفيد مع أخلاق الضعف وجود أخلاق الحق والخير ليكون نهوض وتقدم.

ان أخلاق الحق والخير تضاف الى القوة فتزينها. كما أن أخلاق الباطل والشر تضاف الى القوة فتقبحها، ولكن أخلاق الحق والخير إذا أضيفت إلى الضعف تميع ويضيع أثرها وتصبح باهتة أي أنها تخفق في جبر الضعف بينما ينجح الضعف في تمييع الحق والخير بل ومحقهما أحيانا.

وقد تعرض الأستاذ أبو الأعلى المودودي لهذا الموضوع في كتابه القيم «الاسس الأخلاقية للحركة الاسلامية» ونحن ننقل هنا مع الاختصار فقرات من ص20 21: «.... ان هناك أخلاقا أساسية انسانية لايمكن أن ينجح الانسان في هذا العالم سواء أكان مؤمنا أو كافرا أو صالحا أو طالحا إلا إذا تحلى بها مثل قوة الإرادة والصبر والثبات والهمة والشدة والبأس والولوع بالغاية والاستعداد للتضحية بكل شيء في سبيلها والحزم والحيطة وإدراك العواقب وحب النظام والاحساس بالمسئولية والامتلاك للعواطف والرغبات النفسية....»

«.... على أن هذه الثروة لا تنقلب الى قوة جماعية عظيمة محكمة فعالة في الأمر الواقع إلا إذا ساعدتها جملة من الصفات الخلقية مثل الاتفاق على غاية مشتركة كانت أحب اليهم من أغراضهم الشخصية وكان زعماؤهم عندهم الاخلاص وحسن التدبير....»

ثم ذكر أن الاسلام مع تقديره لتلك الاخلاق الاساسية حض على مجموعة من الاخلاق أطلق عليها الاستاذ الفاضل «الاخلاق الاسلامية» وقد بين أن لهذه المجموعة دورا خاصا وهو:

1 توجيه الاخلاق الاساسية الانسانية وجهة الخير (والاستعمار الغربي الحديث مثال جيد يوضح كيف يمكن توجيه الاخلاق الاساسية وجهة الشر).

2 توطيد الاخلاق الاساسية وتوسيع مجال تطبيقها.

3 الاخلاق الاساسية هي الطبقة الاولى من البناء ثم يشيد الاسلام عليها طبقة ثانية من الاخلاق الفاضلة حتى ليرتقي بها الانسان الى درجات الشرف والكمال .... والاسلام هنا أي في مجال الاخلاق الاسلامية يطهر قلب الانسان من الاثرة والظلم والوقاحة والخلاعة وينمي في نفسه تقوى الله ويجعله جوادا ودودا ناصحا امينا عادلا صادقا لخلائق الله جميعا في كل حال كما يجعله فوق ذلك مفتاحا للخير مغلاقا للشر في أرض الله كافة ....».

ونكتفي بهذا القدر من كلام الاستاذ المودودي وهو كلام نفيس لنقول :

كأن المسلمين اليوم لا يدركون من معنى الاخلاق الا بعض تلك التي اطلق عليها «الاخلاق الاسلامية» وقد نسوا أنه اذا انعدمت الاخلاق الاساسية الانسانية او اضمحلت اضمحلالا كبيرا فما الذي ستوجهه الاخلاق الاسلامية وجهة الخير؟!

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

او ماذا يفيد أن توجه قوة هزيلة وجهة الخير؟ ثم كيف توسع الاخلاق الاسلامية مجال تطبيق الاخلاق الاساسية وهذه الاخيرة غير موجودة اصلا!!

ثم كيف نبني الطبقة الثانية من البناء دون توفر الطبقة الاولى الاساسية؟ الا اذا كنا نبني في الهواء او على الرمال!

تشويه «المثالية» للاخلاق:

كما يكون تشويه الخلقة بعد أن سواها الله في احسن تقويم ويزعم المشوهون انهم انما يقصدون التجميل والتحسين كذلك يقع التشويه لمكارم الاخلاق بعد ان أتمها رسول الله «ص» ويزعم المشوهون أنهم يقصدون السمو والكمال.

ان تشويه المثالية ليس بعدم التطبيق فعدم التطبيق عجز انما التشويه هنا يعني تحريف الخلق عن أصله الانساني الحياتي الواقعي «وهو الاصل الشرعي» والتهويم به في صور خيالية «مثالية» ترمي به بعيدا عن أرض الواقع وعن حياة الناس المادية الفاضلة مع الزعم أن المقصود بهذا الابعاد هو بلوغ اقصى درجات السمو وأقصى درجات الكمال.

ومن الامثلة على ذلك:

أولا: العفة الانسانية (في مجال الجنس) تعني ممارسة الجنس أكمل ممارسة واحلاها عن طريق طيب مشروع.

أما العفة المثالية فتعني احتقار الجنس او التقليل من شأنه والتضييق عليه.

والأمر المؤسف اننا نجد بعض الكتاب حين يعرضون لأمر الزواج في الاسلام يلحون على ان القصد منه هو النسل وحفظ النوع أما ان يكون للاستمتاع فهو أمر شبه منكر أو غريب على خلق المسلم. وينسون حديث جابر بن عبدالله قال: تزوجت فقال لي رسول الله «ص» ما تزوجت؟ فقلت؛ تزوجت ثيبا. فقال؛ ما لك وللعذارى ولعابها. وفي رواية اخرى : هلا جارية تلاعبها وتلاعبك. (رواه الشيخان).

كذلك نرى كثيرا من الكتاب حين يعرضون لزوجات الرسول يلحون على الدواعي السياسية والاجتماعية والتشريعية ويكادون يستبعدون قصد الاستمتاع وكأن لا وجود له بل كأنه امر مشين لا يليق بالرسول الكريم رغم الدلائل الكثيرة التي تشير الى حب الرسول للنساء مثل:

* قوله تعالى «لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو اعجبك حسنهن».

* حديث عمرو بن العاص قلت لرسول الله «ص»: أي الناس أحب اليك؟ قال: عائشة. فقلت: من الرجال قال : أبوها ثم من قال: عمر بن الخطاب ... (رواه الشيخان).

* وفي حديث أنس أن رسول الله «ص» كان يطوف على نسائه في الليلة الواحدة وله يومئذ تسع نسوة. «رواه الشيخان» وزاد مسلم: بغسل واحد.

* وحديث عائشة: كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله «ص» وأقول أتهب المرأة نفسها؟

فلما أنزل الله تعالى «ترجى من تشاء منهن وتؤوى اليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك» قلت: ما أرى ربك الا يسارع في هواك (رواه الشيخان).

خلاصة الامر ان شئنا خلاص خلق العفة من تشويه «المثالية» فعلينا تكريم الجنس للاستمتاع بالحياة ولحفظ الحياة وصيانة الجنس من الانحسار ومن الابتذال سواء. وأنعم بها من آداب الشريعة السمحاء.

ثانيا: الزهد الانساني يعني عدم الطمع والأخذ من الدنيا حسب الحاجة حاجة الفرد وحاجة الجماعة وحاجة تعمير الدنيا والاستخلاف في الارض.

اما الزهد المثالي فيعني احتقار الحياة واجتناب متعها.

والله سبحانه وتعالى يقول «قل من حرّم زينة الله التي اخر لعباده والطيبات من الرزق ...» والرسول «ص» يقول «... ان هذا المال حلوة من اخذه بحقه ووضعه في حقه فنعم المعونة هو ...» (رواه الشيخان).

This file was downloaded from QuranicThought.com

ولنلق نظرة على آثار كل من الزهدين:

الزهد الانساني:

السعي للكسب مع الجد في السعي يتبعه بذل في سبيل الله.

«لاحد الا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على ملكته في الحق ...».

الاجمال في الطلب مع الاحتفاظ بالسخاء في البذل.

«... فمن اخذه بسخاوة نفس بورك له فيه»...

الرضا بما قسم الله بعد السعي الجاد مع ضرورة البذل.

«على كل مسلم صدقة» قالوا : فان لم يجد قال:

«فليعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق» ...

قال ابن مسعود : لما أمرنا بالصدقة كنا نتحامل (اي يحمل بعضنا لبعض بالأجرة» والاحاديث جميعها رواها الشيخان.

الزهد المثالي:

عدم السعي للكسب او عدم الجد في السعي يتبعه عجز عن البذل في سبيل الله.

الاهمال في الطلب والعجز عن البذل.

الرضا بالعدم دون سعي والعجز عن البذل.

ثالثا: التعبد الانساني يعني لحظات من التعبد بالشعائر مع دوام التعبد بممارسة الحياة ممارسة جادة خيرة تبتغي رضاء الله.

اما التعبد المثالي فيعني التفرغ الكامل او شبه الكامل للشعائر. وانظر قول الرسول للثلاثة الذين تقالوا عبادته : اني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني اصوم وافطر واصلي وارقد واتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني. (رواه الشيخان).

واحسب أنه يمكننا ان نضيف من باب المماثلة:

«وأقود الجيوش وأسوس الدولة واقضي بين الناس و ... و ... و...،

الأسر التاريخي للاخلاق:

ونعرض هنا لمثالين اثنين يوضحان مدى تأثير الصور التطبيقية التاريخية على القيم الخلقية الرفيعة، حتى لتكبلها بأغلال ثقيلة تعوقها عن توجيه الحياة (المتطورة) وجهة الخير دائما:

المثال الاول:

التسامح مع أهل الذمة: في ظل ظروف الفتوح وما تلاها كان خلق التسامح يأخذ صورا محدودة، مثل عدم الاكراه على الدين الجديد ومثل عدم العدوان على ممتلكاتهم وأعراضهم. وهذه الصورة لم تمنع:

* التمايز في الزي والسكن.

* عدم استعمالهم في وظائف الدولة.

* الحذر والشك وما يتبعهما من بعض اجراءات التضييق.

كل هذا كان مسوغاته التاريخية حيث كانت العلاقة الاساسية هي علاقة بين غاز ومغزو.

وعند زوال الظروف الموجبة بدأ الحكام يخففون هذه الضغوط ويستعملونهم في الوظائف الكبيرة، ويأمنون لهم ولكن ظل فريق من الناس ينكر الصور المستحدثة ويتمسك بالصور التطبيقية القديمة على أنها الوضع الامثل، الوضع الشرعي الصحيح وأن المستحدث انما هو ابتداع وخضوع للاهواء.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

فاذا بلغنا عصرنا الحاضر وجدنا التسامح قد اكتسب صورا جديدة: مشاركة في التعليم، مشاركة في الجيش، مشاركة في المجالس النيابية، مشاركة في الضرائب، ويظل فريق من المسلم لا يرى في هذه الصورة تسامحا دينيا اصيلا ويحسب أن كل ذلك مخالفة لتعاليم الدين وانهزامية امام المفاهيم الاوروبية الغازية. لماذا؟

هل لان هذه الصور تتنافى مع اخلاق الاسلام الداعية الى التسامح بل الى البر والاقساط لقوله تعالى «لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين».

ام لان هذه الصور تغاير تلك الصور التي طبقها السلف في العهود الاولى؟

المثال الثاني:

العفة : ارتبطت العفة قديمة بقرار المرأة في بيتها فلا تغادره الا للضرورة القصوى ... حتى قيل في وصف المرأة الصالحة ان لها ثلاث خرجات في حياتها كلها مرة من رحم امها الى الدنيا ومرة من بيت ابيها الى بيت زوجها والثالثة من بيت زوجها الى القبر.

اذا احصينا احتياجات المرأة خارج بيتها نجدها تتصل بالمجالات الآتية: الصلاة التعليم التطبيب زيارة الاقارب والاصدقاء الترويح والنزهة شراء الحاجيات من السوق.

فالصلاة منعت منها المرأة بصورة قاطعة بحجة أمن الفتنة (حتى صلاة العيدين حيث عزم رسول الله عل النساء جميعا بالخروج).

والتعليم اقتصر على الرجال دون النساء وذلك بتأثير حرمانها من غشيان المسجد وهو مكان التعليم فضلا عن النظر الى التعليم كأمر خاص بالرجال حيث هم الذين يخوضون مجالات الحياة المختلفة وأما القدر الضئيل جدا الذي تحتاجه المرأة من امور دينها فتتعلمه من أبيها او ممن يتولى امرها من الرجال. ولا ننس أنه شاع الحديث الموضوع:

«لا تعلموهن الكتابة» ..

اما التطبيب الذي يمارسه رجل متخصص فكان محدودا جدا حيث الغالب الاعم هن استعمال الوصفات الشعبية وعند الضرورة يأتي الطبيب الى البيت.

وأما الزيارات فكانت محدودة أيضا نتيجة سكن العائلة الكبيرة في بيت واحد او في حي واحد ... فضلا عن صعوبة المواصلات لزيارة من يسكن بعيدا عن الحي.

وكذلك الترويح والنزهة كانت محدودة جدا وتنحصر تقريبا في النزهات الخلوية التي كانت تحدث مرة او مرتين في العام ... مع استمرار انكار العلماء ما في النزهات من تبرج وخلع برقع الحياء مما كان يدعو الصالحين الى اجتناب النزهات كلية.

وأخيرا شراء الحاجيات من السوق وهذه كان يقوم بها عادة الرجال من الاقارب او العبيد (والاماء احيانا). وكان يتحرج الرجل من أن يظهر في الطريق العام يسير بجوار امرأة سواء كانت زوجته او ابنته او اخته فكان يسبقها بخطوات حتى لا يحس أحد بأن تلك المرأة تسير في صحبته .. وربما فرض العرف ان تخرج النساء في غبش الليل حتى يكون استر لهن.

خلاصة الامر ان عفة المرأة ارتبطت قديما بقرارها في بيتها ... فظلت هذه الصورة عالقة في ذهن المسلم المعاصر رغم ان ظروف الحياة المعاصرة اقتضت تعليم المرأة كما اقتضت ان تعمل المرأة في بعض مجالات الحياة خاصة التطبيب والتمريض والتعليم فضلا عن حاجتها للعلاج والتردد على عيادات الاطباء أو المستشفيات وحاجتها الى الزيارات والى الترويح النظيف وشراء الحاجيات من السوق كل هذا يؤدي الى كثرة خروج المرأة المسلمة من بيتها ...

الا أن المسلم المعاصر نتيجة ارتباط خلق العفة بالصورة التطبيقية التاريخية نراه لايزال لا ينظر بارتياح الى خروج المرأة ويعتبر ذلك جارحا لعفتها ويتمنى لو تعود الحياة سيرتها القديمة حتى تقر المرأة في بيتها كما نراه يعتبر ركوب المرأة دراجة او قيادتها سيارة وان تزينت بزي سابغ جارحا لعفتها. ذلك أننا ورثنا فيما ورثنا ركوب المرأة في هودج. ولم يشفع في كسر هذا الارض مع الاسف ما كان عليه النساء على عهد رسول الله «ص» من ركوب الجمال والخيل والحمير الى جانب الهودج (أي مواصلات ذلك العصر) وكان

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

رسول الله يردف احيانا زوجه خلفه (من حديث رواه الشيخان) . بل أكثر من ذلك اناخ يوما راحلته ودعا اسماء بنت أبي بكر زوج الزبير ليحملها خلفه حين رآها تسير مرهقة في الطريق . (من حديث رواه الشيخان).

أزمات خلقية موروثة(3)

وسنقصر هنا على عرض ظاهرتين بارزتين توضحان أثر عصور الانحطاط الطويلة:

الظاهرة الاولى هي تلك النظرة الشوهاء الى «الصلاح» فالمرء الصالح هو من لا يزني ولا يسرق ولا يشرب الخمر ولا يقامر .... واصبحنا كأننا في غفلة كاملة عن اخلاق الحياة الفاضلة الراقية ... وكأن الفضيلة والرقي هو مجرد اجتناب تلك المحرمات . وكأن ما وراء تلك المحرمات من أخلاق كالجد واليقظة والنظام والتعاون، لا تساوي شيئا! لماذا؟ لانها امور يمارسها المؤمن والكافر والطائع والفاسق اذن ليست هي الاخلاق التي تميز المؤمن والتي ينبغي ان نحرص عليها ونقيس الرجال بها. والا تساوى الرجال مؤمنهم وكافرهم طائعهم وفاسقهم. بل ربما تقدم الكافرون والفاسقون لاتقانهم ممارسة تلك الاخلاق الدنيوية المادية وقد نردد «يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون» ونعزي أنفسنا قائلين: اذا كان لهم الدنيا فلنا الآخرة.

اذا رأينا الكفار والفساق قد صلحت دنياهم وتقدموا وفسدت دنيانا وتخلفنا قلنا: انما تخلفنا وتأخرنا لاننا وقعنا في المعاصر وارتكبنا المحرمات ولا سبيل للنهوض والتقدم بغير الرجوع الى الله وحظيرة الدين أي بتجنب المحرمات.

السبيل القويم هو اغلاق الحانات ودور السينما والملاهي والقمار ومنع الرقص والغناء عندها سوف ينصرنا الله لاننا نصرنا دينه وأتممنا شرعه! وكأن دين الله هو هذه الكبائر الثلاث الزنا والخمر والقمار وكأن شرع الله هو تحريم الثلاث الموبقات فحسب وهكذا نظل نفرح بتلك الاخلاق السلبية بل نتلهى بها ونحسب أنفسنا نقاوم الشيطان الوسواس الخناس. وأكثر من ذلك أننا نرفع اقدار الرجال بل نضعهم في رتبة تشبه التقديس، اذا هم زهدوا في هذه الدنيا واعتزلوا الحياة وحفظوا بطونهم وفروجهم من الحرام.

ونزيدهم رفعة اذا نقلوا عنهم أنهم لم يكتفوا بتجنب المحرمات بل ترفعوا عن تسعة اعشار الحلال مخافة الوقوع في الحرام. وهكذا اختلت موازين الاخلاق عندنا فرجحت كفة السلبيات وشالت كفة الايجابيات.

وقد يقول قائل : أنت تهون من أمر هذه المحرمات وأرد عليه : انما اشنع من أمر الغفلة عن دين وافضح من يكاد يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض ودين الله كل لا يتجزأ. فالله الذي أنزل في كتابه «انما الخمر والميسر» ... هو الذي أنزل :

«وقل اعملوا» ...

«المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف» ...

«ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا ...».

«وأمرهم شورى بينهم »...

«لا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى» ...

ورسول الله الذي قال في سنته : العين تزني .... الخمر أم الكبائر هو الذي قال : لا يكن أحدكم إمعة ... ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه ... سيد الشهداء حمزة ...

ان الالتفات الى النواهي دون الاوامر ،، قد يسوغه أن النواهي محرمات وعقوبتها شديدة والعذاب يرد دائما للعاصين والمفهوم المتبادر للمعصية هو ارتكاب المحرمات ، كما يسوغه النظرة الشائعة للدين على أنه مجموعة قيود ومجموعة محرمات . أي أن مهمة الدين هي التحريم ليكف الناس عن الانطلاق والانفلات والتجاوز.

القرآن يقرر «قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ....» والحديث النبوي الشريف «ألا ان لكل ملك حمى وان حمى الله في أرضه محارمه ....» رواه البخاري، فكأنما جاء الدين ليحمي هذا الحمى أي ليقرر ويرسخ خطر هذه المحارم كما يقرر أن من ترك المحارم فقد نجا.

وهذه النظرة الشائعة هي نظرة ساذجة للمحارم وهي أيضا نظرة منحرفة. فالنظرة الصحيحة العميقة تكشف أن كل أمر امرنا به وقصرنا فيه او تخلينا عنه سنحاسب عليه، أي يصبح التقصير أو التخلي التام عن هذا الفعل الصالح من المحرمات على أن الدين حين يقرر

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

ويرسخ هذه المحارم «الزنى والخمر والميسر» انما يقرر الحد الادنى من الاستقامة الفردية كما يقرر ضوابط اولية لاستقامة الحياة. وطبعا بناء الامم له وسائل غير مجرد استقامة الافراد على الحد الادنى كما أن عامل بناء الامم غير مجرد الضوابط الاولية.

واذا تأملنا قول رسول الله «ص» « اذا نهيتكم عن أمر فانتهوا أي امرا قاطعا هو الامتناع والكل تقريبا يستطيع الامتناع، ثم اذا تأملنا قوله «واذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم» أي حسب القدرة والقدرات تتفاوت من اقصى درجات القوة الى اقصى درجات الضعف. هنا مجال الخيار ومجال الترقي. وحديث الامر بالمعروف والنهي عن المنكر «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فقلبه وذلك أضعف الايمان» يعذر الانسان الضعيف اذا ركن الى الضعف ويصفه بضعف الايمان. لكن أن يصبح الضعف سمتا عاما للامة أي أن تعيش على أضعف الايمان فهذا يعني أضعف الامم، أي في حالة من الجمود والتأخر والانحطاط.

وهكذا نرى كيف يحدث الانحراف في الدين وفي غير الدين نتيجة عدم شمول النظرة ورؤية الصورة من جميع جوانبها. انه ينبغي أن نأخذ الدين ككل بجميع جوانبه وجميع أوامره ونواهيه أما اخذ النواهي دون الاوامر فيؤدي الى اختلال في كيان الانسان فضلا عن اختلال كيان الامة.

الظاهرة الثانية في الاخلاق الموروثة عن عصور الانحطاط هي شيوع خلق السلبية والفردية. ذلك أن التصوف المنحرف (ونعني به الاغراق في جانب من العبادة تصورا وكيفا وكما بعيدا عن النهج الاسلامي الاصيل الذي كان عليه رسول الله «ص» وأصحابه). قد نشأ وترعرع بتأثير رد الفعل لمجتمع مترف كثرت فيه صور الفساد من ناحية، وبتأثير الاحتكاك بفلسفات متطرفة غيبة عن الاسلام من ناحية ثانية. هذا التصوف المنحرف كون مدرسة متميزة بخصائص شتى. وقد اسرفت هذه المدرسة في الحض على الالتفات الى النفس والعبادة والذكر والزهد في الدنيا، كما أسرفت في تصوير الاستبداد والظلم والاستغلال على أنه مجرد بلاء من الله جزاء فساد الجماهير وبعدها عن الدين . وأن العلاج الناجح هو تزكية النفس والعودة الى الله. وقد أفرزت هذه المدرسة ثلاث فئات في المجمع المسلم:

(أ) فئة قليلة طلقت الدنيا كلها وهربت من الدنيا كلها ودخلت جحورا ضيقة اسموها خوانق وربط وتكايا. وكان وراء هذا الهروب إما زهد أخرق زينه التصور الخاطئ والوهم الباطل، واما زهد كاذب فرضه العجز لا العزم، واما زهد منافق طامع في الباطن وزاهد في الظاهر. وقد حملت هذه الفئة القليلة خصائص المدرسة الخلقية والعقلية في أوضح صورها وأشدها حدة سواء في تحكيم الهوى أو الوجد أو الذوق مع اقل قد من العقل أو بدون عقل أو في هوس الكشف (أي كشف حجب الغيب) والاتيان بالكرامات (أي الخارقة لسنن الله وما اعتاده الناس) أو في الانصياع والاستسلام الكامل للشيخ حيث المريد بين يدي شيخه كالميت بين يدي مغسله.

(ب) فئة كبيرة شملت معظم الناس اعتقدت أن الزهد هو الكمال وهو المثل الاعلى . انها اعتقدت في الزهد وعجزت عن ممارسته فظلت تشعر بالنقيصة لعجزها عن بلوغ الكمال، لم تطلق الدنيا ولم تهرب التكايا ولكنها مارست الحياة وهي تحمل لا شعوريا احتقارا للحياة. أي انها لم تمارس الحياة كأكمل ما تكون الحياة وأجمل ما تكون الحياة، ممارسة تعمير شامل وابداع كامل، كما أراد الله حيث قال : «واستعمركم فيها» ... مارست الحياة على استحياء والاستحياء لم ينف الطمع ولكنه نفى الابداع في جميع المجالات. ثم هربت هذه الفئة من جهاد المجتمع الى شيء قليل من جهال النفس، وشيء كبير من الانكفاء على الحياة الخاصة من أهل وأولاد ومال، وتعايشت مع أوضاع المجتمع بما فيه من استبداد واستغلال وفساد، دونما كلمة اعتراض أو انكار ودونما جهد جاد في الاصلاح.

واذا كانت الفئة الاولى قد حملت خصائص تلك المدرسة المنحرفة في أوضح صورها وأشدها حدة فلم تعدم الفئة الثانية من رشحات تلك الخصائص سواء في الرفع من شأن القلب مقابل التهوين من شأن العقل (والمؤمن دليله قلبه لا عقله) أو في الاعتقاد بالكرامات بصورة مسرفة أو في اللجوء الى الأولياء سواء في حياتهم او بعد مماتهم مع الاستعداد العام لتقبل الخرافات عن دور الجن والعفاريت والخضوع للمشعوذين والدجالين ...

(ج) فئة قليلة خدعت نفسها او خدعت الناس ببعض أوراد الذكر وصحبة الشيخ ومالأت اصحاب السلطان والمستبدين الظالمين المستغلين. وكان أبواق دعاية لهم بين تسويغ لأعمالهم الفاضحة وبين ترويج وتضخيم لأعمال جزئية ظاهرها صالح خير كبناء مسجد.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

وهكذا تركت الصوفية المنحرفة بصماتها واضحة على عامة الناس وكل الطبقات تقريبا ومن لم يتتلمذ على شيوخها فقد صاحب تلاميذهم (في الاسرة او في العمل او في الجوار ...) وكان تلاميذهم من جميع الطبقات: العلماء، وطلبة العلم، والحكام، وحاشية الحكام، والتجار، والصناع والفلاحون ... وكان السمت العام الذي حمله عامة الناس هو السلبية ازاء الحياة بدرجات متفاوتة والسلبية الكاملة ازاء ما يدور في المجتمع ولا بأس بأقدار من النفاق اذا لم تكف السلبية في توفير السلام والعافية.

قد يقال ان الانسان في عامة الاحوال ضعيف وقابل للخضوع بحاجاته والعيش في حدود اسرته ولا يحتاج الى معلم في هذا المجال. قد يكون هذا صحيحا ولكن الامر الخطر هنا هو اضفاء صبغة دينية على هذا الضعف، أي تسويغه بمفاهيم الدين بدلا من أن يكون الدين عاملا في السمو بالانسان فيحمل لواء التغيير والاصلاح للمجتمع، وليقول «لا» بكل فيه ويموت شهيدا في سبيل الله . كان ذلك دور الصوفية المنحرفة حتى كاد يموت ضمير الانسان الاجتماعي بل ضمير الامة كلها. كادت الامة تعيش عيش السائمة لا يهمها غير المرعى ولو كان أحط مرعى.

ويقول مالك بن نبي في كتابه وجهة العالم الاسلامي ص 32:

«.... حين يصبح الايمان ايمانا جذبيا دون اشعاع، اعني نزعة فردية، فان رسالته التاريخية تنتهي على الارض، اذ يصبح عاجزا عن دفع الحضارة وتحريكها، انه يصبح ايمان رهبان يقطعون صلاتهم بالحياة ويتخلون عن واجباتهم ومسؤولياتهم كأولئك الذين لجأوا الى صوامع المرابطين منذ عهد ابن خلدون.

وهكذا غلبت السلبية على الانسان المسلم المعاصر مشفوعة بأقدار من النفاق تزيد وتنقص. فاذا كان محيط المسلم المعاصر متزمتا متشددا مغلقا سايره دونما اقتناع احيانا وربما لم يكتف بالمسايرة بل دافع ونافق. واذا كان محيط المسلم المعاصر قد قطع شوطا في التقليد الاعمى للغرب سايره ايضا دونما اقتناع احيانا وربما لم يكتف بالمسايرة بل دافع ونافق. يغلب على المسلم المسايرة وعدم الاعتراض حتى لو رأى ما يستحق الاعتراض وذلك نتيجة التحذير الموروث للايجابية النشطة. وليست السلبية قاصرة على مجال السلوك بل تمتد الى التفكير والنظر والبحث. فقليلا ما يعمل الفرد عقله ويكد ذهنه في دراسة مشكلة ما وتتبع قضية من القضايا.

اذن هناك ارث طويل المدى في مجال الزهد والاحتقار «الخفي» للحياة وفي مجال ضعف اليقظة العقلية وفي مجال ضعف المروءة والشجاعة الادبية، ارث يحمل المسحة الدينية (ظلموا وبغيا على الدين).

التجمعات الاسلامية المعاصرة وأزماتها الخلقية:

كلمة تمهيدية:

ان هناك دوافع تلح علي تدعوني للكتابة واخرى تصد عنها. يدعوني للكتابة اني واحد ممن عاش عمره منذ عقل متنقلا بين احضان بعض تلك الجماعات وعلى درجات متفاوتة من الصلة ببعضها الآخر، وله اصدقاء حميمون ممن ينتسبون اليها. فواجب الوفاء والصدق مع رفاق الجهاد الطويل يقتضي أن أنصح لهم قبل النصح لغيرهم ... فضلا عن ذلك هو نوع من ممارسة النقد الذاتي لاني عشت هذه التجارب بين صفوف تلك الجماعات ووقعت في بعض الخطاء منها الكبير ومنها الصغير ... لذلك كله أراني مدعوا لنصرتها تلك النصرة التي أمر بها رسول الله «ص» حين قال «انصر أخاك ظالما أو مظلوما قيل يا رسول كيف ننصره ان كان ظالما قال أن ترده عن الظلم فذلك نصره».

ان النصح عادة مر المذاق ولكن هو الدواء لا بد من تناوله رغم مرارته. انما قد يخفف من ذلك ان الذي يقدمه صديق يريد الخير كل الخير لجماعات نذرت نفسها للاصلاح.

وما يدعوني ايضا للكتابة ذاك الدور العظيم الذي تقوم به تلك الجماعات في المجتمعات المسلمة المعاصرة فهي رغم نقاط الضعف التي اسوقها في هذا المقال تقوم بحمل لواء عزيز على كل مسلم غيور، لواء الاصلاح والتغيير على أساس من الاسلام الحنيف.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

أما ما يصد عن الكتابة في هذا الموضوع فهي عدة مخاوف أولها ان يحملها البعض محمل التشهير والتجريح لتلك الجماعات. ثانيها ان يستغلها بعض الخصوم في النيل والكيد لتلك الجماعات. ثالثها ان بعض الجماعات الاسلامية تلقى العنت والتضييق في كثير من الاقطار وقد نجد في مثل هذه الكتابة نوعا من الطعن من صديق وهي في محنتها تنتظر منه المواساة والعون.

وخلال مناقشة تلك المخاوف اوضحت الآتي:

ان مخافة أن يحمل الكلام محمل التشهير أرجو ان تتلاشى اذا استحضر رفاق الجهاد أن النصح واجب شرعي وأن لا سبيل الى هذا النصح بغير الكتابة لان الجماعات الاسلامية القائمة تمتد عبر العالم العربي كله. فضلا عن أن امتنا تمتد من المحيط الى المحيط وفي كل يوم تنبعث جماعة من المسلمين راغبة في الاصلاح بصورة من الصور .. وقد تتبع جماعة في ماليزيا نهج او بعض نهج جماعة في سوريا مثلا.

أما ان يستغل الخصوم ما أكتب للنيل والكيد، فهذا بعيد ايضا اذ أنا لم أكشف أمرا دفينا في اعماق تلك الجماعات، انما هي مظاهر عامة يمكن ان يلحظها كثيرون بل ان بعضها ليعلو على السطح لدرجة صارخة ..

بقي موضوع العنف والاضطهاد الذي تلاقيه بعض الجماعات وهي تنتظر المواساة لا الطعن من صديق، والحقيقة أننا يجب ان ننتبه لمعنى دقيق في هذا الموضوع وهو أن الجماعات الاسلامية وقد تصدت للعمل العام وأصبح لها تلك الشخصية المعنوية لم يعد أمر مواساتها يعني السكوت عن النقد الذاتي. فالنقد الذاتي حياة للجماعات وتجديد للحياة. خاصة وقد طال أمد التضييق والاضطهاد ولم يعد فترة محدودة يمكن ان يعمل لها حساب خاص وأن تراعى رعاية خاصة.

ثم ينبغي التفريق بين أسلوب مواساة الافراد المضطهدين وبين أسلوب مواساة الجماعات حاملة اللواء. فالجماعات يمكن ان يكون من مواساتها التعرض لها بالنقد وتوجيه النصح مع تقرير الدور الخطير الذي تقوم به، لان ذلك يعني أنها لا تزال أمرا ذا شأن من الطبيعي أن يكون موضع اهتمام وحديث وحوار.

واخيرا ورد تساؤل : أما كان الاحرى ان كان ولابد من النقد ان تذكر الايجابيات كما تذكر السلبيات؟ وكان الجواب أن هذا صحيح تماما لولا أن الموضوع الاساسي للمقال هو أزمة الخلق المسلم المعاصر أي هو محاولة استعراض بعض صور خلقية سلبية أملا في الخلاص والعافية. ومن هنا يستحيل الحديث عن ايجابيات الجماعات او غير الجماعات فلهذا مجال آخر. كما يستحيل تجنب الحديث عن الازمات الخلقية عند الجماعات وهي عنصر أساسي في اطار ازمة الخلق المسلم المعاصر.

والآن ندخل في الموضوع:

نعرض هنا بعض أمراض خلقية ظهرت مع ظهور التجمعات الاسلامية المعاصرة وهذا لا ينفي أن لهذه التجمعات فضائل كثيرة وأن لها آثارا صالحة في المجتمع. ونحن اذا أردنا ان نقيم تلك الجماعات في انصاف فينبغي أن يكون هذا التقييم اولا بمنظور الفترة التي نشأت فيها تلك الجماعات وثانيا بمنظور الفترة التي تعيشها اليوم. ولكن لما كنا الآن بصدد استعراض بعض ظواهر مرضية تبدو على سطح تلك الجماعات في أيامنا هذه فنكتفي بالتأكيد على أن الجماعات الاسلامية قد حملت لواء الاصلاح في ظروف صعبة بل وسط (بحيرة آسنة تماما) واجتهدت كل جماعة في اصلاح جانب معين نذرت نفسها له معتقدة أنه مدخل الاصلاح العام.

وأني إذ أعي ذاك الدور الخطير الذي حملته تلك الجماعات أيام نشأتها بصفة خاصة أكن لها كل تقدير واعزاز وانطلاقا من هذا التقدير والاعزاز اقدم لها النصح خالصا آملا في مزيد من الرشد والسداد وتجنب العثرات وكل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون. ومن يعمل مجتهدا يخطئ ويصيب وقد يثاب في الحالين. ومن لا يعمل مخطئ غير مصيب وقد يأثم ابدا.

هذا والعمل الجماعي على اية حال من واجبات الدين حيث يأمر بالتعاون على البر والتقوى، ومن أساليب العصر حيث امتدت الجماعية الى كل مجالات الحياة العلمية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية ...

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

وينبغي ملاحظة أن الاعراض المرضية التي سنتناولها قد تظهر في جماعة دون اخرى وقد تتفاوت درجة ظهورها. كما أن بعض هذه الامراض قد ينتشر بين فريق من الاعضاء وتنكره القيادة لكنه قائم على كل حال. أي اننا هنا نعالج ظواهر عامة اما الدراسة التي تتناول بالتحليل والنقد جماعة بذاتها فلها مجال آخر.

أولا: الغلو والتطرف: وله عدة مظاهر:

(أ) تضخيم جانب من جوانب الاسلام حتى يصبح محور كل شيءK، قد يكون هذا الجانب هو تصحيح العقيدة (حول الذات والصفات) او العبادة او بعض جوانب السلوك او هو المفاهيم او هو السياسة او اللامذهبية او المذهبية.

(ب) مفاهيم الجماعة قد تصبح آلة حادة قاطعة وقوالب صارمة يقاس بها الناس كل الناس والاحداث كل الاحداث، بدلا من ان تكون مؤشرات ووسائل تعين على الفهم وبدلا من أن تكون اجتهادات قابلة للمناقشة قابلة لاعادة النظر والتنقيح والتطوير لتواجه الواقع المتغير. ثم ان الفرد يحسب أن مفاهيم الجماعة قد استوعبت كل شيء، وبهضمه تلك المفاهيم اصبح في غنى كامل عن كل ما عداها، وكأن الجماعة وحدها اكتشفت اسرار الماضي والحاضر والمستقبل. وهي وحدها تملك «وصفات مدهشة» تستطيع بفضلها حل جميع مشكلات العالم. وهذه «الوصفات» لا تقبل المناقشة . ومن هذا المنطلق يضفي الفرد العصمة او ما يشبه العصمة على قيادة الجماعة كما يضفي الكمال أو ما يشبه الكمال على تصرفات الجماعة ومواقف الجماعة. ثم مزيدا من العصمة والتقديس للقادة اذا تعرضوا لنوع من الاضطهاد والتعذيب.

(ج) وأحيانا يكون التطرف بتقسيم العالم الى معسكرين اثنين لا ثالث لهما. معسكر المؤمنين ويعني الجماعة التي ينضوي الفرد تحت لوائها، ومعسكر الضالين او الجاهلين ويعني بقية العالم. وقد يترتب على هذا التطرف في تقسيم العالم انخلاع افراد الجماعة المتطرفين عن العالم الجاهلي، عالم اليوم بواقعه وقضاياها ومشكلاته، والتحليق بهم في عالم الاحلام، في الوهم الكبير، المجتمع المنتظر، ومن ثم يصبح الافراد في عزلة او شبه عزلة عن الناس والاحداث.

كما قد يترتب على هذا التقسيم ما يمكن ان نسميه «التطبيق الحزبي للاخلاق» ونقصد به تقليص ميدان عمل الاخلاق الاسلامية مثل «اذلة على المؤمنين» «رحماء بينهم» «وبالوالدين احسانا» «واخفض جناحك للمؤمنين» .. «من فرّج عن مؤمن كربة» «مازال جبريل يوصيني بالجار» . كل هذه الخلاق التي أمر بها الاسلام كدستور حياة بين المسلمين كل المسلمين (وجل هذه الفضائل يشمل الناس عامة) قد تصبح لدى بعض افراد التجمعات المعاصرة قاصرة على محيط الجماعة الخاصة او التجمع المحدود. اما عامة المسلمين فكأنهم قد اصبحهم خارج دائرة الاسلام واخوة الاسلام، فحجبت عنهم اخلاق الصدق والامانة والوفاء وبهذا قد يسقط بعض الافراد دون شعور في اخلاق اليهود حيث قالوا «ليس علينا في الاميين سبيل».

وكما انه يقع احيانا تطبيق حزبي للاخلاق فقد يقع احيانا اخرى نوع من «التقدير الحزبي للاخلاق» .. فلا قيمة لخلق حسن ولا تقدير لعمل كريم ما لم يحمل لافتة «الاسلام» او «الاسلامي» ولا قيمة لرجل فاضل ولا تقدير لانسان كريم ما لم يحمل شارة التجمع الاسلامي العتيد أي انه لا يوزن الناس ولا توزن الاعمال بمقدار ما تحققه من خير وانما بمقدار ارتباطها بالحزب او بشعارات الحزب.

(د) واخيرا يرد تساؤل خطير!؟ فبدع استعراض هذه الصور من الغلو والتطرف التي تصيب بعض الجماعات الاسلامية المعاصرة أو بعض افرادها، هل يمكن ان يذكرنا ذلك بالخوارج؟ كان عند الخوارج محامد من الاخلاق كثيرة كالشجاعة الادبية والحزبية والصبر والثبات والصدق. ولكن غياب بعض الاخلاق ذهب بالاخضر واليابس واهلك الحرث والنسل كما يقولون. بل ان فقدان خلق واحد وهو ما يمكن ان نسميه «الرفق في أخذ الامور» أو «الورع في أمر الدماء»، أو «الاعتدال في الحكم على الناس»، ان فقدان هذا الخلق الواحد جرّ مفاسد ملأت الارض يوما وقد ساعد الى انحراف الخوارج ما كانوا عليه من اجتهاد في العبادة من صلاة وصيام وقيام فاغتروا وتصوروا أنفسهم سيف الله المسلط على الشر والفساد في هذه الدنيا.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

وقد جاء في حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله «ص»: «يخرج فيكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم وصيامكم مع صيامهم وعملكم مع عملهم، ويقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية.... آيتهم رجل أسود... قال أبو سعيد: فأشهد أني سمعت هذا الحديث من رسول الله(ص) وأشهد أن علي بن أبي طالب قاتلهم وأنا معه، فأمر بذلك الرجل فالتمس فأتى به حتى نظرت إليه نعت النبي الذي نعته». (رواه الشيخان).

كما جاء في حديث علي بن ابي طالب: اذا حدثتكم عن رسول الله فلأن أخر من السماء أحب إلي من أن أكذب عليه وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم فإن الحرب خدعة. سمعت رسول الله (ص) يقول: يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان سفهاء الاحلام يقولون من قول خير البرية يمرقون من الاسلام كما يمرق السهم من الرمية لا يجاوز إيمانهم حناجرهم... (رواه الشيخان).

ولكي يتضح جدوى التساؤل الخطير ينبغي التنبه إلى أن الذي انحرف بالخوارج ذاك الانحراف المحزن أيام خلافة علي بن أبي طالب هو حملهم السيف، بينما بعض الجماعات المعاصرة أو بعض عناصرهم على وجه الدقة والتي تحمل شيئا من فكر الخوارج وشيئا من أخلاقهم لم تحمل السيف بعد. لم تحمله بالفعل اللهم في حالات نادرة أو شاذة أ فردية لكنها تحمله «بالقوة» كما يقول المناطقة أي عندها الاستعداد والرغبة ولكنها تنتظر الفرصة.

ثانيا: بين المظهر والجوهر:

يحدث أحيانا عند بعض الجماعات أن توجه العناية للمظهر أكثر من الجوهر ومع تقديرنا لأهمية كثير من المظاهر ولضرورة العناية بها ومع ايماننا بالتفاعل والتكامل بين المظهر والجوهر الا أنه ينبغي أن يظل الجوهر في محله الأرفع ويظل تبعا لذلك موضع الاهتمام الأول. ولنضرب لذلك بعض الأمثلة.

جماعة تعني بالعبادة فتراها تولي كثيرا من اهتمامها لمظاهر العبادة من طول الركوع والسجود وبساطة المسجد فضلا عن بعض مظاهر أخري مثل اللحية.. لذا نجد بعض أفراد تلك الجماعة يحافظون على تلك المظاهر ويدور معظم حديثهم حولها ويفاصلون الناس عليها... بينما جوهر العبادة من خشوع لله وما يثمره هذا الخشوع من تقوى لله في السر والعلن. تقوى تجعل سلوك الفرد مثال الصدق والأمانة والرفق والأناة والمروءة والاحسان. هذا الجوهر وآثاره الطيبة لماذا لا يكون هو المميز الأساسي في شخصية هؤلاء الأفراد؟

جماعة أخرى تعنى بالعبادة فتراها تركز معظم جهودها حول تصحيح التصورات النظرية والتعابير الدارجة على ألسنة الناس مع اهتمام أقل بتوجيه الأفراد الى جوهر العقيد ولب التوحيد وهو الايمان الذي يعمر القلب فيكسبه السكينة مع التقوى ويثمر عمل الصالحات في كل المجالات. لذلك لا يمكن أن تميز بعض أفراد تلك الجماعة حين تخالطهم بوضوح هذا الجوهر وثمراته الصالح. إنما تميزهم بدقة التعبير وضبط التصورات.

جماعة ثالثة تعنى بالمرأة. فبماذا تعنى؟ لا شيء تقريبا غير الزي والاختلاط (وهي تغلو في تصور الاختلاط المحظور بعيدا عن هدى الشارع الحكيم). ويشاركها في هذا جماعات أخرى تدعو الى الاصلاح في جميع المجالات لكنها إذا دعت الى الاصلاح في مجال المرأة وقفت عند حدود الزي والاختلاط لا تكاد تتعداهما الى جوهر العفة والى جوهر واجبات المرأة وحقوقها كشخصية لها دورها في المجتمع. إن جوهر العفة هو ضبط الاستمتاع الجنسي في حدود الزواج أي التعفف قدر الطاقة عن النظرة الحرام واللمسة الحرام والخاطر الحرام. ولا شك ان الحرص على الزي السابغ وتجنب الاختلاط العابث من المعينات على تحقيق العفة وبدونهما تجرح العفة، وقد أوجبهما الشارع الحكيم، ولكن السبيل لأن تأخذ هذه المظاهر الصالحة طريقها الى عقول وقلوب الرجال والنساء ليس هو مجرد التنديد بالاختلاط والابتذال والتفسخ العري. انما هو توجيه الجهود الى الأفكار والنظريات التي تثمر هذه المظاهر الفاضحة.... نفندها ونقدم البديل عنها أي نقدم فكرة مقابل فكرة وعقيدة مقابل عقيدة فإذا استقامت عقيدتهم (رجالا ونساء) استقام سلوكهم، واذا خالطت بشاشة الايمان قلوبهم أذعنوا لأوامر الله وصلوا وصاموا خاشعين له وكفوا عن الاختلاط المشين والزي الفاضح.

جماعة رابعة تعنى بنشر الوعي الاسلامي والمفاهيم الاسلامية لكنها تركز جهودها على نشر مفاهيم نظرية وتمكين افرادها من الجدال الحاد حول تلك المفاهيم. أما سلوك أفرادها من عبادة وأخلاق فهذا تتركه لجهودهم الشخصية، حتى لينتج عن ذلك أن تجد بعض

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

أفرادها يقضون الساعات الطويلة في بث الوعي بين مجموعة من الشباب أو في جدال عنيف حول المفاهيم، وقد يفوته خلال ذلك فرض صلاة أو فرضين دون مبالاة وذلك نتيجة للاعتناء الشديد بالمظهر مظهر الوعي دون جوهره فالوعي الصحيح بالاسلام يقتضي مع الفهم الممارسة الحياتية.

ثالثا: بين الاستقلالية الايجابية وبين «الإمعية»:

ونقصد «بالأمعية» ما عبر عنه الحديث الشريف «لا تكونوا إمعة، تقولون إن أحسن الناس أحسنّا وإن ظلموا ظلمنا ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا».

(رواه الترمذي وقال حسن غريب)

إن بعض التجمعات تقع أحيانا في خطأ جسيم إذ تنزع الفرد من المجتمع الكبير حيث يسود خلق «الإمعية» أو حيث يسود «الامعات» لا لتحرره تحريرا كاملا من هذا الخلق المشين وتجعل منه انسانا مستقل الإرادة له شخصيته المبدعة. إنما هي تحرره تحريرا جزئيا فحسب.

إن الجماعة تنجح في إثارة الفرد على الأوضاع الفاسدة في المجتمع الكبير وتجعله متمردا عليها آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر داعية الى الخير. وفي نفس الوقت تضيق على حريته وارادته وشخصيته داخل الجماعة، وكأنه لا حق له في النقد الذاتي أي لا يمارس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر داخل الجماعة كما يمارسها خارجها. وقد تساعد صور التنظيم والتربية على أن يكون الفرد مستسلما سهل الانقياد فيما يتعلق بأمور الجماعة. وهكذا يكاد يصبح الفرد مع «الإمعات» داخل الجماعة ومع المتمردين خارجها. وهكذا لا تخرج الماعة في هذه الحالة دعاة مؤمنين إنما تخرج حزبيين نشيطين. لا تخرج لنا الشخصية التي تملك ايجابية ذاتية إنما تملك ايجابية موجهة من الخارج موجهة بقوة ديناميكية الحركة ونشاطها وقيادتها... فإذا تعرضت هذه القوة للضعف أو للزوال لأي سبب عارض ضعفت تبعا لذلك أو زالت ايجابية الفرد وعاد سلبيا، معنى ذلك أن ايجابية الفرد الحزبي ايجابية موجهة مكانا (أو مجالا) إلى خارج الجماعة أو الحزب وموجهة زمانا بفترة ارتباط الفرد بالحزب وموجهة من حيث الدرجة بمستوى نشاط الحزب.

وإذا حدث (وهو أمر نادر الحدوث نتيجة التربية والممارسة الطويلة) أن توقف الفرد يعيد النظر في أمر من أمور الجماعة إما بسبب توقد ذهن أو نفس أبية أو إثارة خارجية قوية. إذا حدث ذلك سرعان ما يشعر الفرد بسطوة الجماعة (أو الحزب) التي تفرض الاستسلام المطلق. ولا تقبل بال مجرد الجدال حول مفهوم من مفاهيم الحزب أو حول أحد قادة الحزب لأن ذلك يعني الانكار «للحقائق الثابتة» أو الاعتراض على «المسلمات الراسخة» ومن تجرأ على ذلك فهو الانشقاق والخروج والعصيان. وما أقسى الشعور بالخروج والعصيان. وإذا تغلب العقل بمنطقه والنفس بكرامتها وواصل الفرد النظر والبحث المستقل وأعلن اعتراضه... كان مصيره الطرد من جنة الحزب، والعزلة عن أصدقائه ورفاقه الحميمين. والأدهى من ذلك هو دمغ خلاف الرأي بأبشع الصفات النفسية وعدم الاكتفاء بوضعه في إطار «الخلاف الفكري» إنما هو انهزامية وجبن، وتردد وضعف عن مواصلة الجهاد، ورغبة في السيطرة، وقد تصل التهم أحيانا الى العمالة والخيانة.

ملاحظتان:

الملاحظة الأولى:

ينبغي أن نسجل في نهاية هذا العرض حرص جماعة اسلامية كبيرة في باكستان على النجاة من ظاهرتين خطيرتين أولاهما ظاهرة «الإمعية» حيث لا يكتفي بأن يكون النقد الذاتي روحا سارية في الجماعة بل يوضع له من النظم ويخصص له من الوقت ما يجعله من صلب النظام العام فهناك اجتماع شهري إجباري للأركان (أي الأعضاء الأساسيين)، خاص للنقد الذاتي. هذا فضلا عن ممارسة الشورى على نطاق واسع. الظاهرة الثانية التي حرصت الجماعة على الخلاص منها هي ظاهرة حمل السلاح (سواء بالقوة أو بالفعل) ولذلك نقلوا عن زعمائها قولهم «لقد وجت الى الجماعة طائفة كبيرة من الاتهامات الا أنه لم يوجه اليها تهمة احراز الأسلحة أو استخدام القوة لقلب نظام الحكم. وذلك لأن الجماعة تجنبت تجنبا كليا كل ما يتصل بالسلاح والعنف على مدى تاريخها الطويل.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الملاحظة الثانية:

إ، هناك أمرا يثير الانتباه في موضوع الجماعات وهو أن معظم الأمراض التي تعرضنا لها يمكن أن نلمحها وبوضوح شديد عند الأحزاب العقائدية غير الإسلامية، وهذا مما يقتضي الاستعانة بدراسات علم الاجتماع في هذا المجال.

هوامش:

(1) أنظر «الدستور الأخلاقي في القرآن» للدكتور محمد عبد الله دراز.

(2) انظر كتاب «حتى يغيروا ما بأنفسهم بحث في سنن تغيير النفس والمجتمع» تأليف جودت سعيد. مطبعة العلم. لبنان. دون تحديد الناشر.

(3) انظر كتاب مالك بن نبي «وجهة العالم الاسلامي»

عبد الحليم محمد أحمد أبو شقة

This file was downloaded from QuranicThought.com